آداب الاسلام العليا من سورة « الحجرات »

للأستاذ أبو بكر ذكرى
أستاذ الاخلاق بكلية أصول الدين

سورة الحجرات من أجمع سور القـــرآن الـكريم لآداب السلوك الانسانى الرفيع بل لعلها أجمـع سورة فى القـــرآن لهذه الآداب العليا اذا راعينا نسبتها الى غيرها من السور من حيث الطول والقصر وعدد الآى

نزلت بالمدينة المنورة بعد أن استقر بالرسول الكريم صلى الله عليـه وسلم المقام وتوطد المنزل وتفرغ لأداء الرسالة العظمى وتبليغ تعاليمهـا للناس دون تهاون أو ابطاء ودون أن تأخذه فى الحق لومة لائم .

كان أصحابه رضوان الله عليهم لا يزالون أو لا يزال كثـــير منهم ، قريبى عهد بجاهلية لم تألف التقيد بأدب السلوك المنظم ، ولم يتح لها من تعاليم الأدب ما به تتكمل النفوس وتتجمل الأرواح وتستـنير بؤرة الضمير ، وتتألق أنوار الظاهر والباطن فى أبهى صورة وأجمـل مظهر ، وكان الرسول الكريم وهو مجتمع الكمالات العليا ومشرق أنوار الآداب السامية كثيرا ما يتأذى بما يند من بعضهم من مخالفات لقـــانون الأدب الكريم والخلق العظيم . تلاقى عنده يوما جماعة من أصحابه فرفعـــوا أصواتهم فوق صوته دون أن يتنبهوا لما فى ذلك من خروج عن أدب حضرته ورعاية مكانته ، فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقـدموا بين يدى الله ورسوله » . لا تتقدموا فى حضرته بما لا يليق برعاية رتبته ..

« واتقوا الله ان الله سميع عليم » بكل ما يصدر منكم فاحذروا خطـــر مخالفته والتعرض لسطوته . « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصـــواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ان الذين يغضون (يخفضون) أصواتهم عنـــد رسول الله (تأدبا ورعاية لمقامه العظيم) أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وجاء يوما اليه جماعة من أصحابه يطلبونه لأمر فأبطأ فى الخروج اليهم ، وربما كان تأخره لشأن من شئون بيته أو لأمر من الله يوحى اليه فراحوا ينادونه من وراء حجرات أزواجه بصوت عال ليخرج اليهم وتلك طريقة يأباها الذوق السليم والأدب القويم . وتأذى لذلك صلى الله عليه وسلم . فنزل قوله تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .. ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » وهنا نجد فى هاتين الآيتين الكريمتين قاعدة من الأدب العالى الكريم يؤدب الله بها أمة نبيه الكريم اذ يعلمهم أن لأصحاب الاقدار العالية مقامات يجب أن تراعى وحرمات يجب أن تصان عن هذا العبث ، وان الصبر والتأنى فى طلب الحاجات خير من التسرع والتهجم الذى ينافى الذوق ويأباه ذوو العقول الصحيحة . ولما كان هذا التسرع والتهجم بعض ما ورثوه من طباع الجاهلية وكان لهم عذرهم فيه أخبر الله سبحانه بأنه غفور رحيم لا يعاجلهم بالعقوبة الا بعد أن يعلمهم ويعظهم ويرشدهم الى المسلك الأفضل والأدب الأمثل ، فتعالى الله من رب رحيم بالمؤمنين لا يسرع بعقوبتهم ولا يصيبهم الا بما يأتى منهم من عناد واصرار .

وانه لما يدعو الى الأسف أن ننظر حولنا فنرى مجتمعنا المائل والقرآن الكريم يتلى عليه صباح مساء ، والوعاظ يجهدون جهدهم فى تهذيبه وتثقيفه ، قد كاد ينسى هذه الآداب العالية نسيانا تاما ويتخذ لنفسه عادات وآدابا ما أنزل الله بها من سلطان بل انها فوق ذلك لتنافى الذوق السليم والأدب الكريم . فما أكثر الذين يتجاهلون هذه الآداب فلا يراعون حرمة ذى حرمة ولا مقام ذى سن وحلم وعلم . يمر بهم العلماء والكبراء وذوو السن العالية وهم على أوضاع وأعمال تنافى الآداب فلا يكترثون ولا يهتمون . يثور صغارهم على كبارهم ويرفعون أصواتهم فى حضرتهم بل أكثر من ذلك يقذفون من أفواههم القذرة حمما وسيولا من الالفاظ النابية المؤذية الجارحة للأسماع يندى لها جبين الفضيلة وتنفطر لها قلوب ذوى المشاعر الكريمة أسى وحزنا . كما أن الكثير منهم لا يراعى فى دخوله البيوت وورود أبوابها ما كان يجب عليه من أدب التريث وانتظار الاذن وغض النظر وحسن الاستئذان وتخير الأوقات المناسبة حرصا على راحة سكانها وعملا على عدم احراجهم وايذاء شعورهم .

خطاب كريم

أرسل السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة الى السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الخطاب التالى ردا على برقية مؤتمر وكلاء المشيخة الى سيادته :

« أشكر لك . وللسادة الموقعين على برقيتكم الكريمة وكلاء مشيخة الطرق الصوفية بالجمهورية العربية المتحدة بالاقليم الجنوبى بمناسبة اجتماعكم العام ، تاييدكم للسياسة التى تنتهجها حكومة الجمهورية لخير العروبة ورفاهية البشرية والله أكبر والعزة للعرب » .

وان القرآن الكريم لدستور خالد للآداب السامية لا يطاوله كتاب ولايدانيه سفر من الأسفار .. ولا خفاء لما بين دفتيه على ذى عقل وذى بصيرة . ولا عذر لأحد بعد اليوم الا أن يكون عذر التجاهل والاستهتار والاستخفاف بآداب الاسلام العالية والسير وراء غرائز البهائم الجافية الغليظة . ان هذا الاستخفاف قد أصبح يسرى من الآباء الى الأبناء وينتقل من جيل الى جيل ويرسخ فى النفوس ويتركز فى الطباع فيتباعد ما بين القلوب وبين كتاب الله وما فيه من عظات بالغة وآداب عالية . وما ذاك الا لأن هم الناس المهم وجهدهم الجاهد أصبح لا يعدو ملء البطون وارتداء الخرق والتسابق فى حيازة الدرهم والدينار وتحصيل الحياة العاجلة وأسباب الغنى والجاه دون عناية بالروح وما يجب لها من تطهير وتزكية وتجميل يسمو بها الى الكمالات السماوية وينير جوانبها بالأنوار الربانية فيكون للانسان حياة أسمى وأمل أتم وأعلى فى حياة خلود وسعادة أبدية ، ونعيم لا يزول ولا يحول .. وان كتاب الله الكريم لهو السبيل الوثيق الى ذلك الغرض الأسمى فلنتله تلاوة تدبر وتعقل وتبصر ولنتمسك بما فيه لنصل الى سواء السبيل .